رباعية التجديد والإبداع في قراءة التراث والعصر عند حسن حنفي

بومدين بوزيد(*)

بلغ المفكر العربي "حسن حنفي" هذه السنة سن السبعين(1)، وإذا كانت العرب تقول عن السبعين إنها دقاقة الأعناق "فإن مفكرنا مازال في قوة حضوره الفكري، وقد أبدى أكثر من واحد استغرابًا لقدرته على متابعة كل الجلسات العلمية لمؤتمر القاهرة الدولي الفلسفي السنوي، وتنقلاته العلمية من دولة لأخرى فله حضوره الخاص في شرق أسيا خصوصًا أندونسيا وفي المغرب العربي الجزائر بالخصوص التي يشرف فيها على مجموعة من الباحثين وقد كرمه أساتذة قسم الفلسفة بوهران منذ سنتين وترك بعض الباحثين الجزائريين أثرًا طيبًا في نفسيته، ومثل الفلسفة عربيًا في منظمة اليونيسكو في الاحتفال بيوم الفلسفة، فهو متقن للغات الأجنبية، وقد قال عنه "نصر حامد أبو زيد" تلميذه يومًا إني لأغار منه في تعدد لسانه، قدرات لغوية وعلمية وإنتاج فكري فاق العشرين كتابًا فالرجل متواضع ويصغى للجميع ويريد التعلم من الآخرين ويثبت

(*). أستاذ الفلسفة بمعهد العلوم الاجتماعية، بجامعة وهران.

(1). أي سنة ٢٠٠٤، هذه الكلمة ألقيت في ندوة تكريمية لحسن حنفي بمناسبة عيد ميلاده السبعين بالمركز الثقافي السويدي بالإسكندرية في ديسمبر ٢٠٠٤.

انتقاداتهم في مؤلفاته ويشير إليها ويعترف بها، وهو سلوك العلماء الذين يتعلمون من العلم صفة التواضع التي هى صفة للعلم قبل العالم، كما أنه ينصت للآخرين ويعترف بفضلهم.

المقدمة النظرية التحليلية المنهجية لمشروعه الفكري هى كتابه "التراث والتجديد" الي صدر عام ١٩٨٠ ويعتبر فى الأصل تطويرًا لمقدمة نظرية صدر بها رسالته التي حضرها في فرنسا والمطبوعة بالفرنسية تحت عنوان "مناهج التفسير" سنة ١٩٦٥ بباريس، ثم عمل على إنجاز مشروع رباعي هو في جزئه الأخير في هذا العقد من العمر وهي:

١. من العقيدة إلى الثورة: وهو في خمس مجلدات واستغرق جهدًا فكريًا وكتابة ثلاثة عشر عامًا وتتعلق بعلم أصول الدين والهدف منه دحض شبهة أن الإسلام سبب تخلف المسلمين، وبأنه غير قادر إيديولوجيًا على الدخول في عصر الحداثة عصر العقلانية والعلم وحقوق الإنسان، ولقد أعجب هذا الكتاب كما يقول المؤلف العلمانيين وأغضب السلفيين، عكس ما وقع كتابه الشهير "مقدمة في علم الاستغراب" الذي لقي حفاوة عند السلفيين، والموقفان بالنسبة له موقف الفرح والغضب غير علميين وبالتالي هو يرى أن النقد والمعالجة لنصوصه واجتهاداته هي التي يهتم بها.

٢. من النقل إلى الإبداع: يقع في تسع مجلدات واستغرق من عمر المفكر ستة عشر عامًا، ويتعلق بعلوم الحكمة وهو في الأصل كتب

لـــدحض شـــبهة أن علمـــاء المسلمين كانوا نقلة عن اليونان مترجمين لعلومهم شارحين لمؤلفاتهم وملخصين وعارضين لها.

٣. مـــن النص إلى الواقع: صدر العام الماضي في مجلدين ويتعلق بعلـــم قـــديم يعـــاد بناؤه وهو علم أصول الفقه، وهو رد على شبهة أن التـــشريعات الإســـلامية حرفية فقهية تضحي بالمصالح العامة، قاسية لا تعـــرف إلا الرجم والقتل والجلد والتعذيب وقطع الأيدي، وهذا له علاقة بخـــروج بعض الحركات الإسلامية من النص الحرفي وتطبيق شعاراته حـــول الحاكمية لله وتطبيق الشريعة الإسلامية دون رعاية لواقع متجدد والتدرج في التغيير.

٤. مـــن الفناء إلى البقاء: هو المشروع الذي يعمل عليه الآن إلى جانب اهتمامه بالكتابة عن هنري برجسون كما أخبرني بذلك، المشروع الأخير من المنتظر أن يكون في مجلدين مجلد التصوف كتاريخ، والآخر في التصوف كطريق.

إذا عدنا إلى المرحلة الثالثة من مشروعه، الذي صدر العام الماضي الخـــاص بإعـــادة بـــناء أصـــول الفقه نجده يحدد السمات العامة للفكر الأصولي في:

١. العقـــل: التحلـــيل العقلـــي، والنظر العقلي، والقسمة العقلية، والـــبحث عـــن بنـــية الموضـــوع في العقل، فالعقل مارسه الأصـــوليون من قبل وهو أساس الوحي عكس الجابري هنا

الـــذي يحـــصره بالبرهان الفلسفي الرشدي وهنا ارتبط العقل بالتحليل والقسمة من أجل رؤية الموضوع في أجزائه الأولية بوضوح وتميز، ورد المركب إلى أجزائه الأولية، كما ارتبط بالاستنباط والاستدلال والوصول من المقدمات إلى النتائج في تسلسل منطقي يقوم على الاتساق.

٢. <u>التجـــربة:</u> وهو استقراء سماه الشاطبي "الإستقراء المعنوي" أي الإســـتقراء الكافـــي للوصول إلى الحكم العام، وهو أشبه بالإستقراء العلمي الناقص الذي لا يجرب على كل الجزئيات ولكـــن على الجزئيات الكافية للوصول منها للقانون الطبيعي كما هو الحال في العلوم الطبيعية، والوحي هنا تجريبي بمعنى أنه يساير تطور الوعي الإنساني ويدافع على تقدمه، والشريعة تجـــريبية بمعنى أنها تقدم طبقًا للقدرات كما هو معروف في الناســـخ والمنـــسوخ لرفع الحرج، وعدم تكليف ما لا يطاق، واليسر دون العسر، في حين أن التجربة في الغرب تقدم على نقيض العقل وضده، ولابد من الإختيار بين العقل والتجربة، بـــين الإســـتنباط والإستقراء، بين الفلسفة والعلم، وهي ثنائية الـــنفس والبدن التي مزقت الوعي الأوربي في بداية العصور الحديثة.

٣. <u>المنهجيـــة:</u> البداية يقينية ثم توالى الخطوات، تم تلقي الوحي كمعطـــى حتى تحقيقه كنظام مثالي للعالم، فالوحي ينتقل إلى

الـــتاريخ على مراحل، الوحي غير المتعين، القرآن ثم الوحي المتعـــين فـــي تجـــربة الفرد وفهمه الخاص الإجتهاد، التلقي المـــؤدي إلـــى الفهـــم عن طريق الألفاظ إلى المعاني ثم من المعانـــي إلى الأشياء ثم إلى أفعال البشر وعللها المنتهي عند الـــتحقق، تحقـــق مقاصد الوحي الكلية والفردية، ثم الأحكام الوضعية والتكلفية وهذه الخطوات المنهجية تجعل علم أصول الفقه أحد أشكال مناهج البحث في العلوم الإنسانية.

٤. **المنطقـــية:** قـــبول العقـــل البديهي بهذا الفكر المنهجي بلا اعتراض أساسي ولا يوجد في الفكر الأصولي ما يخرج على قـــواعد المنطق وأصول الفهم السليم، وهو منطق عملي يقوم علـــى الفهـــم المشترك والخبرة المتبادلة وليس منطقًا صوريًا يضع القضايا، وتقوم المنطقية على البداهة والاتساق، البداهة كبداية والاتساق كمسار، والتحقق كنهاية.

٥. **الفطـــرة:** هي الطبيعة البشرية الثابتة، المطردة بصرف النظر عن الدين والفرقة والمذهب والطائفة والجنس والعمر والعصر والمـــرحلة التاريخية، وقد سماها القرآن الكريم أيضًا **الصبغة** ﴿صـــبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ وسماها **سنة** ﴿سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا﴾، لذلك يظل علم الأصول ثابتًا لا يتغير وإن تغيرت مادته، وهو منطق الوحي بعد أن اكتمل في

ختم النبوة، وبعد أن اكتمل الوعي الإنساني عقلًا مستقلًا وإرادة حرة.

٦. **الذاتيـــة:** وتعنـــي أفق التحليل وميدانه، ميدان الوصف في العلـــوم الإنسانية هو العالم الإنساني، وجوهر العالم الإنساني بـــؤرته الذاتية، والوحي في الشعور كقصد بين اللغة والعالم، بـــين الكلمة والوجود، عالم الذاتية ليس إذن عالمًا منغلقًا على الـــذات بل هو عالم منفتح على اللغة التي عبر بها الوحي من خلالهـــا وتـــتجه نحو التحقق في العالم، فالوحي قصد متوجه نحـــو العالم وليس فقط خطابًا لغويًا مغلقًا يدور حول نفسه؟، أولـــه فـــي نهايته، ونهايته في أوله كما هو الحال في تحليل الخطاب في الفكر العربي المعاصر.

٧. **الوضـــعيـــة:** وتعنـــى ان الذاتـــي ليست مجرد خواء أو أية مفـــراغ، خـــيال أو وهـــم بل هى جوهر الوضعية وأساسها فالـــشريعة وضعية وأحكامها وضعية كما يقول الشاطبي، أي أنها موضوعة في الواقع والتاريخ، لها أسسها في بنية الفرد والمجتمع، وفي قدراته الفعلية وسياقتها الاجتماعية، الفعل له ســـياقه الاجتماعي والتاريخي، ولفظ "وضعي" ساء استخدامه كمعارض لما هو مثالي وديني وميتافيزيقي مع انتشار المذهب الوضعي، ولفظ وضعي من إبداع الشاطبي، ووصف الشريعة

بأنهـــا وضعية وصف الشاطبي، أي تقوم في وضع اجتماعي وتاريخي وليست معلقة في الهواء.

٨. **العمليـــة:** الوحي نداء للعمل ولفظ اقرأ تعني التدبر والوعي والدراية من أجل انتفاضة الفعل فالكجيتو الديكارتي قائم على النظـــر والكوجيتو الإسلامي قائم على العمل ﴿وقل اعملوا﴾، ﴿إنـــي عامل﴾، وقد كانت المثالية عند الفيلسوف فخته مثالية عمل، وجعل بلوندال "الفعل" تجل من التجليات الإلهية قبل أن تحوله البراجماتية والذرائعية إلى مجرد منفعة، وتحقق أداتي.

٩. **الإنـــسانية:** الوحي مقصد نحو الإنسان والعالم، وحركة نحو البشر والتاريخ، ظل أصول الفقه علمًا إنسانيًا خالصًا يتحدث عـــن الوحـــي كمشرع ولا يصفه إلا بعد تحققه في التاريخ، عكس علم الكلام الذي جعل موضوع الوحي "الذات والصفات والأسماء والأفعال"، ومن هنا يمكن الحديث عن روافد حقوق الإنسان.

١٠. **الأصالـــة:** وتعني الإبداع الذاتي، إذ يعتمد علم الأصول على المـــصدر الداخلي، إنه علم أصيل، إبداع ذاتي خالص نشأ مع علـــم أصـــول الـــدين قـــبل عصر الترجمة في القرن الثاني الهجري.

يحاول حسن حنفي تتبع هذه السمات المنهجية لأصول الفقه من خلال عملية تطبيقية لبنية خطاب هذا العلم من خلال تتبع نشأة النص المذهبي

وتكوينه، وهى طريقه يراها ضعيفة ويفضل طريقة تتبع النشأة من البدء بصرف النظر عن المذهب، فالنص الأصولي واحد باستثناء القول بالإمام المعصوم عند الشيعة، وهكذا استخدم في الجزء الأول منهجًا وصفيًا تكوينيًا للنص ابتدءًا من البنية الثلاثية في الرسالة من القرن السادس إلى غياب البنية كلية والاكتفاء بالمقال السيال دون بنية.

أما في الجزء الثاني فاستخدم منهج البحث عن بنية النص خارج النص في التجربة الإنسانية المعيشة، فتحليل النص هو تحليل التجارب الشعورية. يمكن القول أن مشروع حسن حنفي الذي لم يكتمل بعد إلا بصدور ربعه الأخير الخاص بالتصوف والعرفان يشكل حلقة مهمة في تاريخ التجديد والتطور في فكرنا العربي المعاصر، كما يعتبر فكرًا نقديًا عمليًا لا يرى الفلسفة تحليقات مفهومية وحذلقة لسانية وسكنًا في برج عاج ولكنها الاهتمام بقضايانا المعاصرة، بالتجربة المعيشة للفرد والأمة.